مجلة
المجمع العلمي العربي

١ نيسان سنة ١٩٥٣ ١٧ شهر رجب سنة ١٣٧٢

محمد عبده

(١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م)

ولد محمد عبده سنة ١٢٦٦ هـ وأبوه عبده خير الله من سكان قرية «محلة نصر» بمركز شبراخيت من عمل البحيرة في مصر، وأمه السيدة جنينة. كان والده من صفار الفلاحين وبذكائه وحسن تدبيره ملك بأخرة اربعين فدانا. وكان كريما يقري الضيوف ويؤوي الغرباء، وكانت منزلة أمه بين نساء القرية لاتقل عن منزلة زوجها، عرفت بذكاء الفؤاد، ورقة القلب، وبر المعوزين والبائسين.

تعلم محمد القراءة والكتابة في منزل والده وأتم حفظ القرآن على حافظ خاص في عامين ولما يتجاوز العاشرة. وأراد ابوه أن يتعلم ولده تجويد القرآن فأرسله الى الجامع الأحمدي بطنطا فقضى في تجويده سنتين، ثم بدأ في هذا المسجد يتلقى النحو فصرف في تعلمه سنة ونصف سنة فما أفلح، وعزم أن يترك طلب العلم ويرجع الى بلده يعمل في الزراعة لكن والده أدرك ما عليه ابنه من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذكاء فلم يرض الا أن يعود الى الأخذ عن مشايخ طنطا ، فأطاع والده وأضمر الهرب وذهب يختفي عند خؤولة أبيه في « كفتيسة اورين » من قرى شبراخيت .

ومن الغد جاءه أحد اخوال ابيه الشيخ درويش وكان على شيء من العلم يجيد حفظ القرآن وفهمه ويحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث وينتحل التصوف ، فما زال بالفتى أياماً يقرأ له في كتاب تصوف ويشرح له حتى تألفه وردته الى حظيرة العلم « ولم يأت على الفتى اليوم الخامس من صحبة الشيخ الصوفي الا وقد انشرح صدره وأنست نفسه ، وانقلبت في عشرته قيم الأشياء ، فأصبح اللهو والزهو أبغض شيء اليه ، وأضحت المطالعة والمدارسة أحب شيء اليه » . وتزوج الشيخ وهو في السادسة عشرة وبعد أربعين يوماً أتت على زواجه أرسله أبوه الى القاهرة ليأخذ العلم في الأزهر . وكان من علمائه الجامدون ومنهم المنورون في الجملة فآلى التلميذ على نفسه ألا يحضر درس من لا يفهم شرحه وتقريره . ولعل هذا التلميذ كان أول شيخ اعترض على طريقة مشايخ الأزهر في التدريس وظل على رأيه حتى أصلحها عندما بلغ أشده وأصبحت كلمته مسموعة .

كان الشيخ في المسامحة الصيغية يعود الى محلة نصر فيجد الشيخ درويشاً قد سبقه اليها فيأخذ في مدارسة الشاب ومحاسبته على ما حصل من العلوم ، ويحثه على النظر في المنطق والحساب . فاذا قال له الطالب هذه علوم لا تقرأ في الأزهر . قال له الشيخ : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في كل مكان . فيؤثر فيه بآرائه وارشاده .

قرأ الشيخ في الأزهر جميع الكتب المقررة في ثلاث سنين . ومضت سبع سنين رأى بعدها الشيخ الصوفي ان مريده كملت نفسه فأخذ يحثه على لقاء الناس ووعظهم ، وكان من قبل يشير اليه بالابتعاد عنهم ، فقال له بعد ذلك : الى متى هذه العزلة ؟ وما الفائدة من العلم ومن تحصيله اذا لم يكن لك نوراً تهتدي به ويهتدي به الناس ، ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس النعمة ، فعليك تخالط الناس وتعظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة » .

ودع المجاور الأزهري شيخه ومرشده في بعض السنين وبكى هذا بكاء شديداً ت في السنة الثانية . وعاد محمد عبده الى القاهرة وفي نفسه أشياء من طريقة خ الأزهر وشروحهم ومتونهم وحواشيهم وتقاريرهم على الشروح ، رآها مما ع فيه الأعمار ولا ينتج عن تعليمها فائدة حتى قال : « كنت أسمع الشيخ يدرّس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية » والطلاب يحفظون ما لا يفهمون وربما ن الأساتذة يلقون ما لا يصححون ولا يعلمون » .

وصف تلميذه الشيخ المراغي عصر محمد عبده وما فيه من انحطاط في السياسة علم والأخلاق فقال : « نشأ الشيخ في عصر من العصور القاتمة ، كل شيء محض مؤلم للنفوس الحرة والفطر الصادقة : الأمم الاسلامية تنحدر علمياً وسياسياً جتماعياً الى أحط الدركات ، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفّس ، لدين يفهمه الناس على غير وجهه ، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات عجم ، والزلفى الى الله لها طرق لم يشرعها الله ، والزلفى الى الحكام لها طرق يرضاها ذو مروءة . ذهبت ريح المسلمين ، وتفلّتت من أيديهم زمام الحياة عامة ، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع ، وليسوا قلة بين لأمم ، ولكنهم كغثاء السيل .

« ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعها ن الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم أدبهم ، وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم الا بشروح وحواشي وصناعة خاصة ، فلا اللغة العربية بمسعدته على اجادة النظم والنثر والكتابة لخطابة ، وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم ، ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة الى الاستدلال الصحيح الذي يطمئن اليه العاقل ، ويقنع الخصم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المحدث في الاجتهاد وتخير الأحكام لتطابق الأحكام حاجة العصر ، ولتلائم أصول الأمم وأحوال الأزمنة ، مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون ، والداعي الى سيرة السلف الصالح داعٍ الى مخالفة سيرة العلماء المبرزين ، والداعي الى كتب الأولين مقصر عن فهم كتب المحققين المتأخرين ، والمنادي بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة ، وبأوهام وقصص لفقها من قبل علماء الاسرائيليات ، مخالف لما درج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها .

« عاش الشيخ في هذه البيئة العلمية ضيق الصدر مرير العيش ، فمن من أصحاب الفطر الصادقة ، والنظر السليم ، يؤمن بالقرآن ويعتقد أن فيه هدياً وفيه شفاء ، وان شريعة محمد ﷺ عامة للأمم كلها وللعصور كلها ، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس اماماً يهتدون بهديه ، ويشفي أمراض المجتمع في علمه وخلقه ونظامه ، ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة ؟ » .

ثم قال : « عاملان من أقوى العوامل وقفا في طريق الشيخ ، عامل الحسد وعامل البيئة ، ومن المحال أن يوجد رجل كالشيخ في صفاته وعلمه لا يُحسد ، ولو أنه لم يُحسد ولو أنه لم يُرمَ بالكفر والضلال ، ولو أنه لم يشتد حساده ، ولم يُقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد ، لما كان شيئاً يتحدث عنه ، ولما كان رجلاً من رجال التاريخ » .

قال وسبب ثالث له خطره « وهو بأن جهة من جهة ذات نفوذ (الخديوي) أظهرت عدم الرضا عن الشيخ وساعدت خصومه ، وأن جهة ذات نفوذ آخر (المحتلون) ساعدته وشدت أزره ، فظن القوم أنه رجل يريد افساد الدين وافساد العلم » ومن أشد مظاهر الحسد اذ ذاك ان عالماً من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات في جريدة المؤيد يحرم فيها الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الأزهر ، لأن الشيخ كان أول المبشرين بتعليم هذه العلوم في الأزهر ، « وكاد العناد يكون كفراً » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال المراغي : ترك الشيخ بذور اصلاح التعليم الديني ، وتعليم علوم العربية ، وبذور اصلاح القضاء الشرعي ، وبذور اصلاح المجتمع الاسلامي والأمم الاسلامية ، وليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيق آي القرآن على سنن الاجتماع ، وفي تصوير هدي القرآن ، وفي فهم أغراض الدين عامة . قال ودعته ليلة سفري الى السودان لتولي قضاء مديرية دنقلة (نوفمبر ١٩٠٤) فما قال لي : أنصحك أن تكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون قاضياً ، واذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه الى الحكم ، فان الأحكام صلاح بقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح . قال وداعبني مرة اثر خروجي من امتحان شهادة العالمية قائلاً : هل تعرف تعريف العلم ؟ فقلت له : نعم ، وكنت أحفظ اذ ذاك أكثر تعاريف العلم ، فسردت بعضها ، فقال : اسمع مني تعريفاً مفيداً ، العلم هو ما ينفعك وينفع الناس . ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ قلت له : لا ، قال : اذاً أنت لست بعالم ، فانفع الناس بعلمك لتكون عالماً .

بقي محمد عبده في هذه البيئة العلمية المنحطة مضطرب البال حتى وافى مصر الامام جمال الدين الأفغاني سنة ١٨٦٩ ثم ذهب الى الآستانة وعاد الى القاهرة سنة ١٨٧١ فلازمه وتتلمذ له وقرأ الأفغاني لتلاميذه بعض الكتب العربية القديمة والكتب الأوربية المعربة في مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والسياسة والاجتماع ففتحت عقولهم ومزقت حجب الأوهام عن عيونهم وأخذ يحثهم على الكتابة والخطابة . ولما قرأ محمد عبده «الحاشية على شرح العقائد العضدية» مال الى رأي المعتزلة دون رأي الأشاعرة فشاع ذلك في شيوخ الأزهر ، وفي يوم الامتحان لأخذ شهادة العالمية قاوموه مقاومة ظالمة ، ومنهم الشيخ عليش والشيخ الجيزاوي ، ومع أن رئيس لجنة الامتحان شيخ الأزهر يومئذ الشيخ العباسي ، وكان على جانب كبير من العلم وحب التجدد ، قال لأعضاء اللجنة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أثناء المداولة انه لم ير في حياته أحداً في ذكائه وتثبته من علمه ، وانه يستحق الدرجة الأولى ، بل لو كان فوقها درجة أعلى لاستحقها ، ومع ذلك لم تسمح اللجنة له الا بالدرجة الثانية وبعد ست وعشرين سنة من نيله شهادة العالمية ، عادت مشيخة الأزهر فصححت خطأها ونقلته الى الدرجة الأولى (١٩٠٤) .

ولم تحل درجات العالمية دون تدريس الشيخ في الأزهر وأكثر ما كان يدرس كتباً في المنطق والتوحيد والأخلاق . وفي أواخر سنة ١٨٧٨ عين مدرساً للتاريخ في « دار العلوم » ومدرساً للغة العربية في « مدرسة الألسن » وبعد قليل عزل عن التدريس في هاتين المدرستين على أن يقيم في قريته لا يبرحها الى الحواضر المصرية وذلك لتغيير خاطر أمير البلاد عليه ثم عفا عنه (١٨٨٠) وعين محرراً في جريدة « الوقائع المصرية » الرسمية ثم رئيس تحرير فيها فاستعان بقوة الحكومة على تحسين لغة الكتابة ولغة الجرائد ، وأخذت الجريدة الرسمية تخوض في موضوعات تثقف وتعلم فكان في هذه الصحيفة معلماً ومصلحاً ، قضى على الطريقة القديمة العقيمة في الانشاء وأبطل السجع والازدواج ، وعلّم الكتاب السلاسة في التعبير وعدم التكلف .

كان الشيخ يرى في شخص رياض باشا رئيس الوزارة صورة حسنة للمستبد العادل « مستبد يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجئ الأهل الى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، ان لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة » .

وكان رياض يعاون الشيخ على مقاصده في الاصلاح ويستعين برأيه في بعض الشؤون . وسقطت وزارته بقيام الثورة العرابية ، وكان الشيخ يومئذ لا يقول بالثورة ويصرح ان الأمة غير مستعدة للحكم الدستوري وأن الواجب تعليمها وتهذيبها أولاً ويرى استشارة الأمة في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات فقط تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة قال : « وليس من اللائق أن تفاجأ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد يفسد المال ويفضي الى الهلكة » . وقال : « أخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسببيه الى يوم القيامة » .

واحتل الانكليز مصر وأرادوا القضاء على الحركة الوطنية وشلوا سلطة دار الندوة وعملوا على التفريق بين الخديوي والأمة فتحول حينئذ مقام عرابي من قائد جيش الى قائد مصر ، وحينئذ أصبح محمد عبده والبلاد المصرية قاطبة من أتباع احمد عرابي . ورأى الشيخ ما كان يراه كل وطني صادق ان واجبه يقتضيه أن يكون مع الأمة على الانكليز وعلى الخديوي الذي أصبح آلة في أيديهم ينفذون به أغراضهم . وأصبح الشيخ كما قال عميد الاحتلال روحاً مدبراً للحركة وأصبح العرابيون يلجأون اليه في كثير من أمورهم ، لا يبرمون أمراً دون استشارته . فكان موقفه من الثورة العرابية كما قال الرافعي المؤرخ : « موقف الوطني الذى يثور لكرامة البلاد واستقلالها فدافع عنها بكل ما لديه من حول وقوة واخلاص » .

اضطر الشيخ الى ركوب مراكب السياسة وما كان يود أن يدخل فيها ، زج فيها رغم ارادته ولذلك رأيناه يتخلى عن السياسة بعد أن صفا له الجو ولم يرض الدخول في غمارها بالفعل وانقلب معلماً ومرشداً ، أي انه شارك في السياسة بالقدر الذي أراده ثم نفض يده منها الا قليلاً .

ولما قبض على من عرف لهم أثر في الثورة كان الشيخ في جملتهم اتهموه بأنه أفتى بوجوب قتل الخديوي لخروجه على اجماع الأمة ، فغرّب من القطر المصري الى الشام ثلاث سنين ، ثم غادرها الى باريز لنشر مجلة « العروة الوثقى » مع صديقه وأستاذه السيد جمال الدين الأفغاني . وكانت العروة الوثقى جمعية سرية يقصد بها محاربة الاستعمار والمستعمرين وفي مقدمتهم الانكليز ، والغرض البعيد من الجمعية « اعادة الحكم الاسلامي وهداية الدين الى ما كان عليه من الطهارة والعدل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والكمال في العصر الأول ، بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام في أمور الدنيا ، ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم . وأما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال » .

وضاق صدر المستعمرين من مقالات مجلة العروة الوثقى فمنع الانكليز دخولها الهند ومصر والسودان فلم تعش أكثر من ثمانية أشهر كانت مقالاتها ، ويكتبها محمد عبده بقلمه الساحر ويملي بعض آرائها السيد جمال الدين الأفغاني ، أشبه بدساتير للأمة اذا جرت على بعضها نجت مما هي فيه من الانحطاط ومن الذل الذي صارت اليه بفعل ملوكها وأمرائها وزعمائها . وذهب متنكراً من باريز الى تونس فمصر ثم عاد الى بيروت (١٨٨٥) واستدعي للتدريس في المدرسة السلطانية فوضع لها برنامجاً جديداً أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي وظهرت آثار تعاليمه في التلاميذ آخر السنة ، وأرشد المعلمين الى الطريق القويم في التدريس وتهذيب ملكات الطلاب وتثقيف أخلاقهم . وزار خلال ذلك بعض مدن الشام وأفاض على كل من لقيه غرفة من علمه وبيانه . وبورك له بوقته فعلق على كتاب « نهج البلاغة » وعلى « المقامات » للهمذاني وغير ذلك .

وعفي عن الشيخ فعاد الى وطنه فعين قاضياً في المحاكم الأهلية الابتدائية فقال حين سمع خبر تعيينه : ما خلقت لأكون قاضياً بل لأكون معلماً ، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت . وقيل ان عميد الاحتلال بعد مدة أراده على أن ينزع العمامة فيكون رئيس وزراء مصر فقال له : خلقت معلماً وأريد أن أموت معلماً . وترقى في القضاء حتى صار مستشاراً في محكمة الاستئناف ، وكان يود ألا يدخل فيه وينقطع الى التدريس مع انه كان يعلم أنه يرتقي في هذا السلك الى أعلى الدرجات وان مجال التدريس ضيق محدود وطلب ان يعود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى مدرسة دار العلوم فأبى الخديوي أن يجيبه الى طلبه مخافة أن يلقن تلاميذه من أفكاره السياسية . ولما نصب الخديوي عباس على امارة مصر داخله الشيخ وأقنعه بضرورة اصلاح الأزهر ولكن دسائس شيوخه وغيرهم حالت دون انفاذ هذه الأمنية

وفي سنة ١٨٩٩ عين الشيخ مفتياً للديار المصرية فأصبح بحكم منصبه الجديد عضواً في مجلس ديوان الأوقاف الأعلى الذي أنشأه عميد الاحتلال للحد من تصرفات الخديوي في أموال الأوقاف ، وعين في الشهر الذي تولى فيه الافتاء عضواً في مجلس الشورى . ولم يلبث أن ظهرت المشادة بين الشيخ والخديوي فان هذا أراد أن يبدل مزرعة له بأراض للبناء في ضواحي الجيزة ووضع الثمن الذي راقه فأبى الديوان باشارة الشيخ الا أن تثمّن أرض الخديوي وأرض الوقف ، فكان من ذلك أن خسر الخديوي خمسين الف جنيه ، وبذلك انتقلت العداوة التي نشأت بين مترجمنا والخديوي توفيق من أجل تقلبه في سياسته يوم الاحتلال الى ابنه عباس ، وظل هذا يحرض سفهاء الأفاقين على الشيخ ويحمل زبانيته من الجواسيس والكتاب على تسويد صحيفته في نظر الأمة ، ولكن الشيخ وجد له معتصماً من عميد الاحتلال فكان هذا يبعد نظره يدفع العوادي عنه ويوقيه غضب الأمير .

وكان أول ما ام في ذهنه تفتيش المحاكم الشرعية ففتش كل أرجاء القطر ولم يدع محكمة مديرية او مركز الا شاهدها بنفسه وبحث أعمالها بحثاً دقيقاً ، وتعرف حال قاضيها من قوة أو ضعف ، وضبط العمل والاهمال فيه ، فوضع تقريره وصادف من وزارة العدل معاضدة على انفاذ أكثره ، فأخرج القضاء من دركات التدني التي كان غائصاً فيها . ثم استقال من ادارة الأزهر وظل على العناية بما يصلحه . ورضيت الحكومة أن تفتح مدرسة يتخرج فيها القضاة والكتاب والمحامون الشرعيون وبذلك أبقى للشريعة بعض بهائها الذي كان المشايخ الفقهاء السبب في ذهابه ، واضطرار الخديوي اسماعيل الى العمل بقوانين فرنسا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعد أن اقترح على أهل الأزهر أن يؤلفوا كتاباً في الحقوق والعقوبات موافقاً لحال العصر فرفضوا لا تديناً بل عجزاً . ووضع لائحة لاصلاح المساجد ليكون أئمتها وخطباؤها من أهل العلم بالدين فعارضه الخديوي أيضاً لحنقه على الشيخ يوم عرض على الأوقاف استبدال أراضي البناء التابعة للأوقاف في الجيزة بمزرعة الخديوي المعروفة باسم مشتهر . قاوم الخديوي الشيخ في هذا المشروع أيضاً وغفل عن مصلحة المسلمين في تقريره وانفاذه وبذلك صح ما قاله ان مصيبة هذه الأمة بفساد أخلاقها أكبر من جميع مصائبها ، وقوله انه لم يعمل عملاً لمصلحة المسلمين ووجد له من يعارضه فيه من غير المسلمين ، لا من الافرنج ولا من القبط ، ولا من السوريين .

كانت طريقة الشيخ السير الى جانب الدين مع مراعاة أحوال الدنيا او تطبيق أمور العالم على الشريعة ولذلك كان في فتاويه يفتي على وجهين ، الوجه الأول : الفتوى الرسمية يتقيد فيها بمذهب الحنفي وغير الرسمية تختلف باختلاف طلب المستفتي فمن المستفتين من يسأل عن حكم الله تعالى «وعلى المفتي أن يجيبه بما يعلم من حكم الله تعالى في كتابه وما ثبت عنده من سنة رسوله ﷺ نصاً او اقتضاء» . وكانت عادة المفتين في مصر الوقوف عند حد فتاوى الحنفية ومذهب ابي حنيفة مذهب السلطان الذي كان يخفق علمه على القطر .

وكان للشيخ بحكم منصبه ما جعل منه أحسن أداة يستخدم في النهوض بالأمة شأن كل كفؤ من الرجال لا يفلت من يده فرصة لنفع غيره . ومن ذلك انه لم يكتف باصلاح الأزهر واصلاح المحاكم الشرعية بل توفر مع أصحابه على انشاء جمعية سموها الجمعية الخيرية الاسلامية غرضها التعاون على تربية أولاد الفقراء والمساكين من المسلمين واعانة العاجزين منهم على الكسب . قال في احتفالها السنوي مرة : لم تنشأ الجمعية لأخذ الشهادات والاستمداد للوظائف بل من أهم مقاصدها أن تنزع من النفوس اعتقاد أن التعليم لا فائدة فيه الا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاستخدام في الحكومة، والجمعية توطن نفوس التلاميذ في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه باتقان ويعيش مع الناس بالأمانة والاستقامة، فولد النجار يكون نجاراً، وولد الحداد يكون حداداً، وولد الفراش يكون فراشاً، والتربية والتعليم يساعدان كلاً على اتقان عمله وصناعته فيكون اكثر كسباً لأنه أكثر اتقاناً للعمل مع الأمانة والاستقامة . وأصبح الشيخ في سنة ١٩٠٠ رئيساً للجمعية الى يوم وفاته، فجمع لها من كرام المصريين أموالاً عظيمة ووقف عليها مزارع واراضي وأنتجت ما كان يعقد عليها أمله من الخير في تربية أبناء الفقراء تربيةً حرةً طاهرة .

وهو الذي ألّف شركة طبع الكتب فطبعت أسفاراً مفيدة واشترك في تصحيح عدة كتب قديمة ومنها المخصص لابن سيدة .

فطر الشيخ على بثّ العلم، وكان معلماً في كل مكان دخله، معلماً في الجريدة الرسمية، ومعلماً في دار العلوم وفي مدرسة الألسنة، ومعلماً كل يوم في دروسه في الأزهر منذ حداثته الى آخر أيامه، ومعلماً في القضاء على اختلاف الدرجات التي تولاها، ومعلماً في الافتاء وفي مجلس الأوقاف الأعلى وفي مجلس شورى القوانين وفي الجمعية الخيرية الاسلامية وفي غير ذلك من الأعمال بهمة تعلو على الهمم العالية . انتبه من نفسه الى فساد طريقة التعليم الأزهري وهو في العقد الثاني من عمره وظل طول حياته يحارب تدريس الحواشي والشروح والهوامش والتقارير ويقول ان أهل الأزهر يتعلمون كتباً لا علماً، وغرامهم في حل عبارات المؤلفين والمهمشين والمحشين .

قاوم الجامدون من مشايخ الأزهر الشيخ وما كفوا عن مقاومتهم حتى أصبح غرة شاذخة في الاسلام وعندها خافوا على مناصبهم منه. فصانعوه وتألفوه .

قال له الشيخ البحيري مرة في مجلس ادارة الأزهر مدافعاً عن نفسه : « اننا نعلم الطلاب كما تعلمنا » . فقال الأستاذ : « وهذا الذي أخاف منه » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال البجيري مستنكراً : «ألم تتعلم انت في الأزهر وقد بلغتَ ما بلغت من مراقي العلم ، وصرت فيه العلم المفرد » . فأجاب الامام : «ان كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكره ، فانني لم أحصله الا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق به من وساخة الأزهر ، وهو الى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة » .

وشرح مرة طريقته في التدريس فقال ان الكتب لا تفيد القلوب العمي الا اذا صادفت قلوباً متيقظة عالمة بوجه الحاجة اليها واذا وصل الى ايدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون لا يعقلون المراد منه واذا عقلوا منه شيئاً يردونه ولا يقبلونه ، واذا قبلوه حرفوه الى ما يوافق علمهم ومشربهم .

قال ان الكلام المسموع يؤثر في النفس اكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن نظر المتكلم وحركاته واشاراته ولهجته في الكلام ، كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه ، وأيضاً يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه ، فاذا كان مكتوباً فمن يسأل ؟ ان السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم ، والقاريء لكلامه يفهم منه ٢٠ في المائة على ما اراد الكاتب . وعلى ذلك كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر وبعض طلبة المدارس الأميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم ، مع أنها كان من حقها ان تكتب ، وما علمت أحداً كتب منها شيئاً خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعاني في بعض ما يكتبان وأما المسلمون فلا » .

وقال الأستاذ المراغي : كانت دروس الأستاذ كالغيث وكانت مثلاً عالياً في طريقة الالقاء والتفهيم وفي العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة الى القلوب وكانت دائرة معارف يجد اللغوي فيها حاجته ، والفقيه رغبته ، والمتكلم بغيته ، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آي القرآن على معارفهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم تترك واجبات المناصب وقتاً كافياً للأستاذ ينقطع فيه الى التعليم والتأليف واضطرته حالة الأمة الى الدخول في غمار الثورة العرابية وكذلك كان حاله بعد أن عاد الى مصر يتولى أعمال القضاء والافتاء . كان يكره السياسة ويقول انها ما دخلت في شيء الا أفسدته ، وفي كتابه الاسلام والنصرانية : « فان شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين ، أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم او يتعلم أو يُجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس » .

وبعد فان تآليف الشيخ صغيرة الحجم جمة الفوائد وله تقارير في الاصلاح كان يقدمها الى الحكومة فتنفذها أو اكثرها ، وكتب أكثر ما كتب لدواع وبواعث دعته الى وضعها وما كان ينشرها الا بعد درس وتحقيق وتمثلها في صدره أولاً شأنه في دروسه . نشأ نشأة صوفية على يد شيخه ونسيبه الشيخ درويش في قريته فكان من الطبيعي أن يكون اول تآليفه « الواردات » رجع عن بعض ما كان قرره فيها ، ورسالة في « وحدة الوجود » بين فيها مراتب الوجود وتعددها من وجوه نظامها العام ووحدتها من وجه آخر ، و « تاريخ اسماعيل » لم يطبع ، و « فلسفة الاجتماع والتاريخ » ، و « حاشية على عقائد الجلال الدواني » ، و « شرح نهج البلاغة » ، و « شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني » ، و « شرح البصائر النصيرية » ، و « نظام التربية والتعليم » ، و « رسالة التوحيد » ، و « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » ، و « تفسير سورة العصر » ، و « تفسير جزء عم » ، وأمتع تآليفه التي تجلى فيها علمه وبيانه « رسالة التوحيد » . هذا الى تقريره في اصلاح الأزهر وفي اصلاح المحاكم الشرعية ودفاعه عن الاسلام اذا طعن طاعن عليه ومنها ما كان ينشره في الصحف في آخر أيامه خلواً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من توقيعه أو يوعز الى خاصته ليكتبوا فكره ويقرهم عليه فينشرونه بأسمائهم .

- حفلت حياة الشيخ بأمور كلها تدور على النهوض بالمسلمين وتثقيفهم ثقافة تجعل منهم أمة مخفسرة ، ولذلك كان في بعض فتاويه يسير مع العقل ولا يحيد عن طريق السلف ، بدأ صوفياً وانتهى مجتهداً لا يقول الا بما يقول به علماء الظاهر أمثال الامامين ابن تيمية وابن قيم الجوزية . ولكم بورك له بساعات عمره وبحق ما وصفه قاسم أمين عندما قال : « يطالع ويتعلّم ويعلّم ويفتي ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين ومجلس الأوقاف الأعلى ويترأس على الجمعية الخيرية الاسلامية ويضع التشريعات للأزهر وللمحاكم الشرعية ، ويمتحن طلبة العلم وتلامذة المدارس ويؤلف الرسائل الدينية وينشر المقالات الفلسفية ويدافع عن الدين اذا طعن عدو عليه ، ويراسل علماء المسلمين في جميع الأقطار التي يسكنونها ، ويفاوض رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده . وكان مع كل ذلك يجد وقتاً ليزور أصحابه ويشاركهم في جميع أفراحهم وأتراحهم » ، قال انه وصل الى مقام الامامة بأوسع معانيها . وقالوا انه كان اذا دُعي الى حفلة عامة أو مأدبة خاصة وحالت صحته او قلة وقته دون الاجابة اليها يبعث بكتاب بقلمه فكان صاحب الدعوة بين عاملين في قبول دعوته او الظفر منه بكتاب اعتذار يقرؤه على أصدقائه وأهله ، وان فاته الاستماع بحديثه اذا حضر . وكان ما يكتبه في شكر المؤلفين الذين يهادونه بكتبهم سبباً في رواجها ، لأن الشيخ لا يقول جزافاً ، وكتبه من هذا القبيل كثيرة يتألف منها جزء لطيف .

حضرت دروسه في الرواق العباسي في الأزهر ، ومجالسه الخاصة في داره في عين شمس أو في دور بعض مريديه ، وسمعت بعض خطبه في الجمعية الخيرية الاسلامية فكنت أقول : سبحان من خصه من بين معاصريه ببلاغة اللسان وبلاغة القلم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصفه العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي في مجلة «الضياء» بقوله : كان متوقد الفؤاد ، ثاقب البصيرة ، قوي الحجة ، ذرب اللسان ، بليغ العبارة ، اذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه فلا يتوقف ولا يتلكأ ، ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولا تركيباً سخيفاً ، حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البداهة وجدته كأحسن ما ينشئ المترسلون من الفصحاء . وكان آية من آيات الله في قوة الحفظ وسرعة التناول حتى انه تعلم اللغة الفرنسوية وهو فوق الأربعين فلم يأت عليه الا أشهر حتى كان يجيد فهمها ، ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها ، ولم يرو مثل ذلك الا عن أستاذه السيد جمال الدين . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

كان الامام يتوخى في دروسه ألا تكون جافة اذا طال بحثه وتقريره فيشفعها في الحال بشيء من دعابته الحلوة يفرغ عليها من روحه الصافي ما يجب الى النفوس الرجوع الى سماع ما يحاول القاءه عليهم من المسائل والمشاكل . وما حضرت له درساً ولا مجلساً ولا خطبة الا تمنيت لو يطول القاؤه أكثر مما طال ووددت ان أكون كلي آذاناً تسمع وقلوباً تعي وتفهم . وما شككت قط ان كل ساعة من ساعات حياته كانت نفعاً وخيراً ، وان كل من كتب له الاتصال به أفاد من علمه وتجاربه ونصائحه وهديه وتأثر به عقله وروحه .

عطف عليَّ منذ تشرفت بالاجتماع اليه في القاهرة فقال في الملإ من أصحابه انه قرأ ما كتبته الصحف في مشروع السكة الحجازية فما قدر جلالة الموضوع حتى نشرت في مجلة المقتطف مقالة فيه فاطلع فيها على ما لم يطلع عليه من قبل . فهيأ لي بهذه الشهادة سبيل التعرف الى طائفة من رجال مصر في العلم والقضاء والادارة والسياسة والأدب ، وهذا جل ما يتطلبه ناشئ مبتدئ من العون والتنويه .

قالوا ان الأستاذ تعلم اللغة الفرنسية وهو في الرابعة والأربعين لما اشتدت حاجته اليها أيام تقلد القضاء وشاهد رفاقه يستعينون في أحكامهم بالقانون الفرنسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فما وسعه الا تعلم اللغة الفرنسية وأتقنها من دون كبير عناء في وقت قصير ، فكان يحضر في الصيف دروساً في هذه اللغة في كلية جنيف ويتمرن على الكلام فيها والفهم في السياحات وقد ساح في اوربا وافريقية وآسيا كثيراً . وأذكر أني صحبت أحد علماء المشرقيات من الألمان لزيارته في داره وكان الحديث بالفرنسية في موضوع التربية والتعليم فما غلط الأستاذ غلطة واحدة في الساعة التي قضيناها في حديثه وأبان عن بديهة مؤاتية دهش لها صاحبي الألماني وبقي أياماً يحدثني بأثر تلك الزيارة في نفسه .

ذكر السبب الذي دعاه الى تعلم الفرنسية قال : ثم ان الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة اوربية هو اني وجدت انه لا يمكن لأحد أن يدعي انه على شيء من العلم يتمكن منه من خدمة امته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة اوربية كيف لا وقد اصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين في جميع اقطار الأرض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم او للخلاص من شر الأشرار منهم . واخترع الأستاذ لنفسه طريقة تلقف اللغة الفرنسية فكان يتلو أمام استاذه قصة لاسكندر دوماس والمعلم يصلح له النطق ويفسر له الكلام ثم تعلم نحوها بالتدريج .

وكان الشيخ عملياً في تلقن العلم وتلقينه منذ حضر درس النحو في الجامع الأحمدي في طنطا وتأفف من طريقة تعليمه . كان في القضاء قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم ، قال عن نفسه : « انني كثيراً ما أنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوهاً كثيرة للحكم بالادانة مثلاً ، حتى اذا ما تمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوّض كل ذلك البناء الذي كنت بنيته في ذهني من وجوه ترجيح الادانة وظهر لي بغتة أن المتهم بريء حتماً فأحكم بالبراءة » وكان يفضل أبداً ان يجري الصلح بين المتخاصمين حتى لا تتأصل العداوات بين الناس اذا فضت المحاكم الشجار بينهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان الشيخ رأساً في كل ما عانى من أعمال المجتمع لا يلبث ان يظهر فضله الباهر في الأيام الأولى من توليه عملاً من الأعمال وتتخاذل قوة الأمراء والطغاة أمام عقله ، كان الخديوي عباس يبغضه لأنه لم يوافقه على مد يده الى الأوقاف ، ويشتد في مقاومته بكل ما تصل اليه قوته من ضروب المقاومة فاذا ما وقع في مأزق لا يتأخر عن دعوته لارشاده الى الطريق الواجب سلوكها علماً منه بسعة عقله وسعة علمه ، كان يهيج عليه العلماء والأدباء كل حين ويوم الجد لا يعتمد على غير رأيه وحكمه ، والشيخ بما عرف من كرم أخلاقه يتجاهل كل ما يصيبه من أذى مبغضه .

كان الشيخ كريماً يتصدق في السر وقد خص بعض الخاويج المستورين برواتب يقبضونها من راتبه الكبير من الأوقاف وكان ينفقه كله في هذه الوجوه من البر . كان نصير المظلومين والضعفاء ولطالما سعى لجلب الخير الى من كان يقذف فيه ويعاديه من دون سبب ، يقصد بذلك ان يعلمه ويعلم غيره كيف تكون الأخلاق الطاهرة وان هذا هدي الاسلام وطريقة صاحبه .

قيل انه نظم أبياتاً في مرضه الأخير أبان فيها عن غرضه من الحياة وهي :

ولست أبالي أن يقال محمد ... أبلّ او اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها ... اذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيا ربّ ان قدرتَ رُجعى قريبة ... الى عالم الأرواح وانقضّ خاتم
فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً ... رشيداً يضيء النهج والليل قاتم

قالوا ان لسانه لم ينطلق بقول الشعر الا في آخر أيامه وفي الحبس لما سجن مع العرابيين .

أجاب الشيخ رجلاً من الشاميين هنأه بمنصب الافتاء ومما جاء في جوابه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يصف موقفه من الأمة المصرية : «أما قومي فأبعدهم مني أشدهم قرباً مني وما أبعد الانصاف منهم ، يظنون الظنون ، بل يتربصون بي ريب المنون ، تسرعاً منهم في الأحكام وذهاباً مع الأوهام ، وولعاً بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلوك الملام ، أقول فلا يسمعون ، وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون الى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم :

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا

وأقول ولا من الخير .

« وانما مثلي فيهم مثل أخ جهله اخوته ، أو أب عقته ذريته ، او ابن لم يحن عليه أبواه وعمومته ، مع حاجة الجميع اليه ، وقيام عَمَدهم عليه ، يهدمون منافعهم بايذائه ، ولو شاءوا لاستبقوا باستبقائه ، وهو يسعى ويدأب ، ليطعم من يلهو ويلعب . على اني أحمد الله على الصبر وسعة الصدر اذا ضاق الأمر ، وقوة العزم وثبات الحلم ، وان كنت في خوف من حلول الأجل قبل بلوغ الأمل ، خصوصاً عندما أرى العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً ، لما أنبتت زرعاً ، ولا أطلعت شجراً ، أفزع لذكرى ذلك وأجزع ، ويكاد قلبي يتقطع ، ثم أرجع الى الله فأعلم انه مع الصابرين . وانه لا يضيع أجر العاملين ، فيثلج صدري وأمضي في جهادي الدائم ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ...

« ليتني كنت أشكو الى الله جهل العالمين وحمق المعلمين في مثل هذه الجاهلية التي بعث النبي لمحو أحكامها وازالة اياسها . تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً ولكن كان فهم القوم جديداً لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه ، وعندما قرع أسماعهم صوت الداعي أجابوه ، كان القرآن يصدع أفئدتهم فيلين من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شدتهم ، ويفلّ من شرّتهم ، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة ، وما كان أهل العناد فيهم الا قليلاً عرفوا الحق فأنكروه ، وطائفة كانوا يفرون منه خوف ان يعرفوه ، ولو سمعوا لفهموا ثم لم يجدوا بداً من أن ينصروه . وان الجحود مع الفهم كاليقين مع العلم ، كلاهما قليل في بني آدم . أما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم وضعف العقل ، واختلال نظام الادراك ، وفساد الشعور عند الخاصة ، فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة ، وغاية ما يطلبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا ، وان يوصفوا بالعلم وان لم يعقلوا ، وان تقضى حاجاتهم اذا سألوا ، وان ترفع مكاناتهم وان تنزلوا ... »

وهذه من أجمل الصفحات التي كتبها الأستاذ الامام في النعي على قومه فساد إلخلق والعناد على سماع الحق ولو كتب له أن يكتب كتاباً في حاضر المصريين لكان أجمل كتاب يصدر عن مثله .

رسم الأستاذ الامام ، وهو اللقب الذي أطلق عليه في أواخر أمره ، خطة لنفسه في الحياة منذ كان في العشر الثاني من عمره وبقي على تحقيقها لا يثنيه شيء عنها وما حاد عما رسم في الدرس والتدريس ولم يبرد غرامه بحمل النور الى العقول الى آخر ساعة ، وهذا قلما عهد في الشرق الاسلامي . ولا غرو ان اضطلع وحده بعمل مئات من أمثاله من المشايخ مجتمعين ذلك لأن أكثرهم يحصلون العلم ليعيشوا في الدنيا ويتولوا المناصب في الدول ، أما هو فتعلم العلم ومارسه لينفع به الناس في دينهم ودنياهم ، ويخرج من هذا الجسم المنحط ناشئة قوية تفيد الاسلام والمسلمين . كان مفرداً في أمته لم ينبغ فيها مثله منذ قرون ولعل القرون تتوالى حتى ينشأ رجل فذ من عياره يستوفي شروط الامامة وتعزف نفسه عن المطامع والمظاهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والسر في تفوقه على غيره انه كان من أول نشأته يستعمل عقله ويكره الجمود والمنجهية ، ويعرف وقته معرفة ثاقبة ويسير بما يلائمه وييسر على أمته . عرف ان الشريعة مرنة تصلح لكل زمان ومكان فانتفع ونفع بهذا الرأي ، وكان اذا جاءته المعضلات جرد لها من عقله مخارج لحلها بقانون الشريعة وقانون العقل معاً ، فقد سئل في ذبيحة النصارى فأحلها ، واستفتي في جواز لبس القبعة فأجازها ، وسئل في ايداع المال في صناديق التوفير فأفتى به . وفي تفسيره القرآن فسر أموراً غامضة لا يفهمها كل الناس وقربها من الأذهان فأقنع غير المتعنتين كمسألة الجن والملائكة فسرها بما لم يسبق لمفسر على ما نظن . ومن قرأ دروس تفسيره يدرك انه عالم لا كالعلماء يقول أبداً : « لا امام سوى العقل » .

لم يخلف الامام مالاً تعيش به أسرته من بعده ، « عاش عظيماً فقيراً ومات فقيراً عظيماً » خلد اسماً يذكر بالاعجاب والتقديس كما ذكره الذاكرون .

محمد كرد علي

جزيرة العرب

قال صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي في الجزء الثامن والثلاثين من التذكرة قلت وقد أمرني المخدوم الناصري بنظم حد جزيرة العرب في شهر ربيع الآخر من شهور سنة خمسين وسبعمائة :

جزيرة هذه الأعراب حدت بحد علمه للحشر باق
فأما الطول عند محققيه فمن عدن الى ريف العراق
وساحل جدة ان سرت عرضاً لأطراف الشآم على اتفاق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net